صدر الخبر - الخلفية التاريخية
الأزهر فى العصر الفاطمى
(٣٦١ - ٥٦٧ هـ/ ٩٧٢ - ١١٧٢م)

جاء فى «لسان العرب»: «قال شمر»: الأزهر من الرجال الأبيض العتيق البياض، النير الحسن، وهو أحسن البياض، كأن له بريقًا ونورًا، يزدهر كما يزدهر النجم، والسراج، والمرأة زهراء. والأزهر الأبيض المستنير، ومنه حديث الدجال: أعور، جعد، أزهر. والأزهر القمر. والأزهران الشمس والقمر لنورهما. وفى الحديث: أكثروا الصلاة على فى الليلة الغراء واليوم الأزهر، أى ليلة الجمعة ويومها، كما جاء مفسرًا فى الحديث. وفى حديث على رضى الله عنه فى صفة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان أزهر اللون ليس بالأبيض الأمهق..

وكان أغلب مؤرخى مصر الفاطمية يطلقون اسم «جامع القاهرة» على الجامع الأزهر، وكان المقريزى، وهو عمدة مؤرخى مصر الإسلامية، غير مدافع ولا منازع، يطلق عليه تارة «جامع القاهرة» وأخرى «الجامع الأزهر». ثم توارى الاسم القديم، وغلب عليه الاسم الجديد: «الجامع الأزهر».

وقد اختلف فى تفسير التسمية الجديدة، فمن المؤرخين من يرى أن لفظة «الأزهر» مشتقة من «الزهراء» لقب السيدة فاطمة الزهراء ابنة رسول الله عليه وعلى آله صلوات الله وسلامه، مثلما انتسبت إليها الدولة الفاطمية، بينما ينسب فريق آخر من المؤرخين الاسم إلى إسكان وتخطيط القاهرة، ذلك أنه على عهد الخليفة العزيز بالله أنشئت بالقاهرة قصور بلغت المدى فى البناء

والتنسيق، حتى إنها سميت القصور الزاهرة، فأطلق اسم الأزهر على المسجد بعد أن عفا الدهر على هذه القصور، تعلقًا بذكرى أيام المجد الفاطمى. ويرى فريق ثالث أن الاسم جاء تيمنًا بما سيبلغه الجامع من عظمة ومجد بازدهار العلوم فيه. ويبدو أن التفسير الأول هو أرجح التفاسير.

وكانت المساجد الجامعة فى مصر قبل الأزهر ثلاثة: جامع عمرو بن العاص، شيده العرب حين فتحوا مصر سنة ٢٠هـ/ ٦٤١م بقيادة عمرو، فأنشاءوا مدينة الفسطاط، وفى نفس السنة بنوا فيها الجامع، ثم كان جامع العسكر حين طارد العباسيون فلول الأمويين. وفى طليعتهم مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية فى مصر، فلقى مصرعه على ثراها، فى السابع من ذى الحجة سنة ١٣٢هـ الموافق السابع من يوليو سنة ٧٥٠م. وابتنى قائد القوات العباسية صالح بن على مدينة العسكر لتكون عاصمة جديدة لمصر بدلا من الفسطاط، ثم شيد بها الفضل بن صالح بن على والى مصر من قبل الخليفة العباسى الثالث المهدى المسجد الجامع فى سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م.

ولما قامت الدولة الطولونية سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م ابتنى أحمد بن طولون عاصمته الجديدة القطائع بدلا من العسكر، وأسس فيها مسجدها الجامع، مسجد أحمد بن طولون.

أما الأزهر رابع المساجد الجامعة فهو أهم أثر من الفاطميين بمصر.

ينتسب الفاطميون إلى نسل إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب. وقيل إن الإمام جعفر الصادق قد أوصى بالإمامة إلى ابنه الأكبر إسماعيل، ثم نحّاه عنها، إذ أوصى بالإمامة لابنه موسى الكاظم. وقيل كذلك إن إسماعيل مات فى حياة أبيه، فانتقلت الإمامة إلى أخيه. ورأى الإسماعيلية أن تحويل الإمامة، وبالمصطلح

تكـون مثالًا من أمثلة «البداء». و«البداء» يعنى أنه يبدو لله أمر، ثم يعدل عما أمر به من قبل. و«البداء» لا يجوز على الله، والإمامة أمر من الله يتلقاه الإمام المعصـوم، ولهـذا فهم يستمسـكون بإمامة إسماعيل بن جعفـر الصادق. وهذا هو الخلاف الجوهرى بين فرقة الشـيعة الإسماعيلية، وفرقة الشـيعة الإمامية الجعفرية الاثنى عشـرية، التى تمتد فيها الإمامة مـن جعفر الصادق إلى ابنه موسـى الكاظم، إلى ابنه علـى الرضا، إلى ابنه محمد الجـواد، إلى ابنه على الهادى، إلى ابنه الحسن العسكرى، إلى ابنه محمد المهدى المنتظر، فى غيبته الكبرى، آخر الأئمة، الذى سـيظهر فى زمانه الموعـود ليملأ الدنيا عدلًا بعد أن ملئت جور.

وهناك من يشككون فى نسب الفاطميين، بيد أن حججهم واهية، أو على الأقل ليسـت قوية. وعلى أية حال فإن قضية النسـب هذه ليست جوهرية، فقد أسـس الفاطميون بمصر دولة من أعظم الدول الإسلامية فى تلك العصور، وأنشـأوا بهـا مدينة القاهرة العظيمة، بل أعظم مدائن الإسـلام فى المشـرق والمغـرب، وكانت حضارتها من أزهى الحضارات، وكان أروع تجسـيد لها الجامع الأزهر الشـريف، أعظم الجامعات الإسـلامية وأينعها غرسا، أعرق جامعـة فى العالم، لا يتقدم عليه سـوى جامعات غدت تاريخا مثل جامعة الإسكندرية القديمة، ليسيوم أرسـطو طاليس، وأكاديمية أفلاطون، وجامعة برجامون بآسـيا الصغرى، وجامعة «أون» أو عين شمس القديمة، التى يقال إنها كانت موجودة فى مصر الفرعونية قبل نحوٍ من ألفى سنة قبل الميلاد.

وكان أول من نودى له بالخلافة الفاطمية هو عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل الثانـى بن محمد بن إسماعيـل بن جعفر الصادق. ولقد حاول الفاطميون نشـر المذهب الفاطمى فى مصر إبان الدولة الإخشـيدية، فأنفذ الخليفة الفاطمى الأول

المهدى ثلاث حملات عسكرية إلى مصر فى السنوات ٣٠١هـ/ ٩١٣م، ٣٠٧هـ/ ٩١٩م، ٣٢١هـ/ ٩٣٣م. التى استمرت نحو ثلاث سنين. على عهد ابنه الخليفة الثانى القائم بأمر الله أبى القاسم نزار بن عبيد الله المهدى، لكن هذه الحملة الثالثة لم تكن أوفر حظا من سابقتيها. وبعث القائم بأمر الله إلى الإخشيد برسالة يطلب إليه فيها السماح بنشر الدعوة الفاطمية بمصر، لكن الإخشيد ماطل الرسول، فقد آثر أن يحتفظ بصداقة الخليفة الفاطمى فى المغرب، والخليفة العباسى فى المشرق جميعًا! لكن علاقته ما لبثت أن ساءت بالخليفة العباسى، فألغى الإخشيد الخطبة للخليفة العباسى، ودعا للخليفة الفاطمى. لكن ما لبثت علاقة الإخشيد بالخليفة الفاطمى الثالث المنصور بنصر الله أبى الطاهر إسماعيل أن تدهورت. ولما تولى الخليفة الفاطمى الرابع المعز لدين الله أبو تميم معد الحكم فى غرة ذى القعدة سنة ٣٤١هـ الموافق ٢٠ مارس سنة ٩٥٣م، وكانت الدولة الفاطمية قد استردت عافيتها، وثبتت أركانها. بعد ثورات على عهد الخليفة الثالث المنصور بنصر الله. بل استطاع المعز أن يقضى على دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى. وامتد سلطانه من حدود طرابلس الغرب شرقًا إلى المحيط الأطلسى غربًا. صحت عزيمته على فتح مصر، وآزرته على ذلك عوامل. لعل أهمها موت كافور الإخشيدى سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م، واضطراب الحياة الاقتصادية فى مصر. إذ تعاقبت فيضانات منخفضة شحيحة على البلاد تسع سنين، فتقلصت المساحات المزروعة. وعزت الأقوات، وعمت المجاعة. وتلتها أوبئة حصدت النفوس حصدًا، وشجر النزاع بين قادة الجيش، ومزقتهم الأحقاد. والأطماع كل ممزق. واشتد سخط الناس على سياسة الوزير أبى الفضل جعفر بن الفرات، وجعل القرامطة- وكانوا أول عهدهم يدينون للخلافة الفاطمية بالولاء. لكنهم ما لبثوا أن خرجوا عليها- يتهددون حدود مصر الشرقية.

وكان دعاة الفاطميين قد انبثوا فى ريف مصر وحضرها، يبشرون بالفتح الفاطمى، ويهيئون الناس لاستقبال الفاتحين.

وأعد المعز لدين الله الفاطمى جيشًا جرارًا، بلغت عدته مائة ألف فارس، سوى الجند المشاة، وكان حريصًا على أن يجنب حملته أسباب فشل الحملات الثلاث السابقة. فأنشأ لها الطرق، وحفر لها الآبار، وبنى منازل للاستراحة على فترات منتظمة. وخرج المعز لوداع جيشه يقوده جوهر الصقلى فى اليوم الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٣٥٨هـ الموافق السابع من مارس سنة ٩٦٩م، ودخل مصر فى أصيل اليوم السابع عشر من شعبان سنة ٣٥٨هـ الموافق السادس من يوليو سنة ٩٦٩م. وكانت تشمل أيامئذ الفسطاط والعسكر، ووضع فى الليلة ذاتها الحجر الأساسى لمدينة جديدة تكون عاصمة للدولة الفاطمية، بعد انتقال الخليفة الفاطمى من بلاد المغرب إلى مصر، وأطلق على المدينة الجديدة اسم «المنصورية»، نسبة إلى الخليفة الفاطمى الثالث المنصور والد الخليفة الرابع المعز. وظل هذا الاسم مطلقًا على المدينة الجديدة زهاء أربعة أعوام، حتى دخل المعز لدين الله المدينة، فسماها القاهرة، تفاؤلًا بأن العاصمة الجديدة ستقهر فى قابل الأيام الدولة العباسية، التى أمر القائد جوهر الصقلى بقطع الدعوة لها فى مصر فور دخوله إياها، كما حرم لبس السواد، شعار العباسيين. بل إن المعز حين ودع جنده وقائده خطب الجنود، قال: «... ولتبنن مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا».

وفى يوم الجمعة العشرين من شعبان سنة ٣٥٨هـ توجه الصقلى إلى الجامع العتيق (جامع عمرو) لأداء فريضة الجمعة، وكان خطيبه يومئذ هبة الله ابن أحمد، فخطب الناس خطبة بليغة، ختمها بالدعاء للمعز قائلا: «اللهم ارفع درجته، وأعلِ كلمته، وأوضح حجته، واجمع الأمة على طاعته. والقلوب على

موالاته ومحبته، واجعل الرشاد فى موافقته، وورثه مشارق الأرض ومغاربها، وأحمده مبادئ الأمور وعواقبها، فإنك تقول وقولك الحق: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ الأنبياء الآية ١٠٥. اللهم اجعل راياته عالية مشهورة، وعساكره غالبة منصورة، وأصلح به وعلى يديه، واجعل لنا منك واقية عليه».

ولأن مصر قد عرفت منذ فجر التاريخ التسامح المذهبى، كان على الفاتح الجديد أن يصطنع هذه السياسة، على الرغم من كونه قد فتحها رافعًا لواء مذهب جديد يخالف به عن مذهب أهل السنة، فأصدر القائد جوهر إلى أهل مصر أمانا يطمئنهم فيه إلى أنه لن يقسرهم على اعتناق مذهب معين، مذهب الشيعة. وفى الحق فإنه، كما يقول الدكتور سعيد إسماعيل على فى كتابه «دور الأزهر فى السياسة المصرية»: «لم تكن الدولة الفاطمية شديدة التعصب لمذهبها، على الرغم من أنها قد قامت على أساس مذهبى، وصحيح أن كتب التاريخ تحدثنا أن رجلا قد جلده الفاطميون لمجرد كونه قد وجد معه «الموطأ» للإمام مالك، لكن حادثًا فرديًا لا يمكن أن يتخذ أساسًا لدعوى تعصب الدولة الفاطمية».

ونود أن نقول: إن سلوك الفاطميين فى هذه الحادثة ليس بمستغرب، ذلك أن الإمام مالكًا له رأى فى الخلفاء الراشدين عجيب، فهو يرى أنهم ثلاثة وليسوا أربعة!!! إذ هو يجعل الخلافة الراشدة فى أبى بكر وعمر وعثمان، ويجعلهم فى مرتبة دونها مراتب سائر الناس. أما الإمام على فهو فى نظره واحد من جملة الصحابة لا يزيد عليهم فى شىء!!! سئل مرة فى درسه: «من خير الناس بعد رسول الله؟».. قال: «أبو بكر». فسئل: «ثم من؟». قال: «ثم عمر» فسئل: «ثم من؟». قال: «عثمان». فسئل: «ثم من؟».

قال: «هنا توقف الناس. هؤلاء خيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. أمَّر أبا بكر على الصلاة، واختار أبوبكر عمر، وجعلها عمر إلى ستة. فاختاروا عثمان، ووقف الناس ها هنا». وفى رواية، زيدت عبارة: «وليس من طلب الأمر كمن لم يطلبه».

ولقد اتهم مالك بأنه فيه نزعة أموية، لكننا- فى الحق- مع الدكتور مصطفى الشكعة، كما جاء فى كتابه «إسلام بلا مذاهب»، نستبعد هذا الاتهام. فالثابت أنه لم يؤيد ملك بنى أمية ولا ملك بنى العباس، لأنه يعلم أن كلا النظامين نظام ملكى كسروى بعيد عن الشورى والإسلام. وقد سئل مرة هل يجوز قتال الخارجين على الخلفاء؟ فأجاب إجابة تتسم بالدقة والحنكة: «لا يجوز إذا خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز». وفحوى هذا أنه لا تجوز مقاتلة الخارجين على أغلب ملوك الأمويين والعباسيين. وشىء آخر من أجله نستبعد هذا الاتهام فليس من شك فى أن انتشار مذهب مالك فى المغرب كان على يد إدريس بن عبد الله بن الحسن مؤسس دولة الأدارسة فى المغرب، وهو القائل فى مقام التقدير لمالك: «نحن أولى بمذهبه».

وهناك رواية ذكرها ابن عبد ربه فى عقده الفريد، تدخل عثمان، وهو أموى- فى دائرة اعتراض مالك، ذلك أنه كان يذكر عثمان وعليا وطلحة والزبير، فيقول: «والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر»، يعنى الأبيض الممتلئ بالإدام، أى إنهم- ومنهم على- اقتتلوا على دنيا وليس على دين!!

لكل أولئك لم يكن موقف الفاطميين فى قصة الموطأ بمستغرب.

وربما شجع الدولة الفاطمية- كذلك- على اتخاذ سياسة التسامح معرفتها أن مسلمى مصر وإن كانوا يجلون كل الخلفاء الراشدين، إلا إنهم يخصون آل بيت رسول الله، عليه صلوات الله وسلامه بحب خاص، واحترام هائل.

ويحسون ألم الضيم الذى أصابهم فى العصرين الأموى والعباسى. ولك أن تتساءل كم مصريًا تعرف يتسمى باسم «معاوية»، وكم يتسمى باسم «على» أو «أبو الحسن» أو «حسن» أو «حسين»؟!!

بيد أن أغلب مسلمى مصر لا يتجاوزون حبهم آل بيت الرسول الأكرم، وإدراكهم لما عرض لهم من ظلم فادح واضطهاد رهيب ومجازر بشعة فى العصر الأموى، ثم على عصر أبناء عمومتم العباسيين، إلى اعتناقهم المذهب الشيعى بكل أطيافه، شأنهم فى ذلك شأن الإمامين العظيمين أبى حنيفة النعمان، ومحمد بن إدريس الشافعى.

كان الإمام أبو حنيفة، رضى الله عنه، يرى أن نظام الحكم فى الإسلام يتحتم أن يكون شوريًا، تسانده بيعة صحيحة، عادلًا، بعيدًا عن التحايل والاغتصاب أو سمات الملك، ومن ثم فقد كان يرى أن الخلافة الإسلامية الصحيحة انتهت بمقتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام. وتروى فى ذلك آراء عديدة حول من خرجوا على الإمام على، ومن ذلك: «ما قاتل أحد عليًا إلا وعلى أولى بالحق منه» (المناقب للمكى). وهذا الحكم ينسحب بالطبع على حرب على ومعاوية، ومن ثم فإنه يسلب الأمويين شرعية ما ادعوه من خلافة.

نعم كان الإمام أبو حنيفة يرى رأيًا صريحًا أن الحكم الأموى غير شرعى، لعدم استناده على أصول الحكم فى الإسلام، ولهذا فإنه لم يتحرج من مناصرة زيد بن على زين العابدين، رأس الزيدية، حين خرج على ملك بنى أمية متسلحا ببيعة من جمهرة المسلمين. وكان له نفس الرأى فى ملك بنى العباس. وآية ذلك أنه كان يحض الناس على مناصرة إبراهيم الإمام وأخيه محمد النفس الزكية ابنى عبد الله بن الحسن حين خرجا على المنصور. ولقد

روى أن محمد بن عبد الله بن الحسن قد ذكر عند أبى حنيفة، فكانت عيناه تدمعان (أبو حنيفة لأبى زهرة).

بل إن أبا حنيفة رحمه الله يصدر أحكامًا صريحة فى مختلف المعارك التى خاضها الإمام على كرم الله وجهه؛ أو بالأحرى؛ التى فرض عليه أن يخوضها، مثل حرب الجمل؛ فيقول عن يوم الجمل: إن عليًا سار فيه بالعدل؛ «وهو أعلم المسلمين فى قتال أهل البغي»؛ ويقول عن طلحة والزبير: إن عليا «قاتل طلحة والزبير بعد أن بايعاه وخالفاه». (المناقب للمكى).

وقد روى إمام أهل السنة الأعظم أبو حنيفة عن الإمامين الجليلين محمد الباقر، جعفر الصادق رضى الله عنهما؛ ما أخذه عليه بعض المتعصبين!! بيد أننا نرى. كما يرى الدكتور مصطفى الشكعة فى كتاب «إسلام بلا مذاهب» أن هذا أمر طبيعى بالنسبة لأى منصف، معتدل التفكير، عادل الأحكام.

أما عن الإمام الشافعى رضى الله عنه فيقول:

إذا نحن فضلنا عليًا فإننا ... روافض بالتفضيل عند ذوى الجهل
وفضل أبى بكر إذا ما ذكرته ... رميت بنصب عند ذكرى للفضل
فلا زلت ذا رفض ونصب كلاهما ... أدين به، حتى أوسد فى الرمل

ويقول:

يا أهل بيت رسول الله حبكم ... فرض من الله فى القرآن أنزله
كفاكم من عظيم الفضل أنكم ... من لم يصل عليكم لا صلاة له

ويقول فى ثوب من التحدى وإطار من الإعلان على رؤوس الأشهاد:

يا راكبًا قف بالمحصب من منى ... واهتف بقاعد خيفها والناهض
سحرًا إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضًا بملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضًا حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أنى رافضى

ويروى المقريزى أن أول ما درس بالأزهر من علوم كان الفقه الفاطمي. ففى صفر سنة ٣٦٥هـ جلس قاضى مصر أبو الحسن على بن محمد بن النعمان بالجامع الأزهر، وأملى مختصر أبيه فى الفقه عن أهل البيت (الفقه الشيعى الإسماعيلى)، ويعرف هذا المختصر بـ «الاقتصار» وحضر الدرس عدد هائل من الناس، وأثبت أسماء الحاضرين.

ويعد الخليفة العزيز بالله، خامس الخلفاء الفاطميين، أول من أقام الدرس بالجامع الأزهر، فتحول الأزهر من مجرد جامع إلى جامع وجامعة. كما يقول الدكتوران عبد الجميد يونس، وعثمان توفيق. إذ ما كاد العزيز بالله يتولى الخلافة حتى قام ومعه وزيره أبو الفرج يعقوب بن كلس. وكان من فحول العلماء، بتعيين خمسة وثلاثين عالما لتدريس الفقه الشيعى الإسماعيلى، والدراسات الدينية، واللغة والأدب. وابتنى لهم المنازل المجاورة للجامع، وأسكنهم فيها، وأجرى عليهم الأرزاق والمنح والعطايا.

ورغبة من الفاطميين فى تعظيم شأن الأزهر، كان عليهم أن يجتذبوا طلاب العلم، من كافة أرجاء العالم الإسلامى، فكانوا يقدمون إليهم المأكل والمشرب والملبس دون أجر.

ويرى كثير من الباحثين أن الأزهر لم ينشأ فى البداية ليكون معهدًا أو جامعة لدراسة المذهب الشيعى الإسماعيلى، ذلك إن إنشاء المساجد الجامعة كان سياسة ثابتة أرسيت دعائمها عند إقامة أية مدينة جديدة، وكان مذهب الإمام مالك يشترط لصحة صلاة الجمعة أن تكون فى المسجد الجامع، ويشترط فيه بدوره أن يكون داخل المدينة، أو غير بعيد منها على الأقل، بحيث يمكن أن يصل إليه دخانها وأن يكون مبنيًا بناء يكافئ- على الأقل- البناء المعتاد لأهل المدينة (أو البلدة).

نعم، يرى كثير من الباحثين ذلك، ويدعم هذه الرؤيةكذلك أن دراسة المذهب الشيعى لم تبدأ فى الجامع الأزهر إلا بعد إنشائه بنحوٍ من ثلاثة أعوام ونصف العام، وكانت فى البداية دراسة متواضعة لا توحى بأن إنشاء الجامع كان بهدف الدعوة للمذهب الشيعى. زد على هذا فقد أنشأ الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م جامعة أخرى هى «دار الحكمة»، والتى حظيت باهتمام أكبر كثيرًا مما حظى به الأزهر وعلماؤه وطلابه. وقد زودت بمكتبة هائلة لا تتقدم عليها فى مصر سوى مكتبة الإسكندرية. وقد رحل إليها وتخرج فيها كبار علماء الشيعة مثل الحسن بن الصباح.

نقول مرة أخرى، نعم كل هذا صحيح، لكن الأزهر تحول بعد ذلك ليكون بالفعل معهدًا لدراسة المذهب الشيعى. ويرى الدكتور عبد العزيز الشناوى فى كتابه: «الأزهر جامعًا وجامعة» أن نوعية التعليم ونوعية الخطط الدراسية ونوعية المناهج قد اختلفت اختلافًا جذريًا ما بين الأزهر ودار الحكمة، وذلك لاختلاف الأهداف التى توختها الدولة منهما. كانت الدراسة فى دار الحكمة تشمل التفسير والحديث وعلوم اللغة والفلسفة والمنطق والرياضيات والفلك والتنجيم والطب، فكانت الدراسة فيها أكثر تنوعًا من الدراسة فى الأزهر. وإلى جانب هذا فقد كان يلقن فيها الدعوة السرية الفاطمية. وقد اتسعت دار الحكمة أولا لدراسة المذهبين الشيعى والسنى، ودعى إليها شوامخ الأساتذة المتخصصين فى المذهبين، ثم أقصى عنها الأساتذة السنيين! وينقل الدكتور الشناوى عن الاستاذ محمد عبد الله عنان تلخيصه للخصائص الظاهرة والخفية لدار الحكمة، يقول: «كانت دار الحكمة فى ظاهرها جامعة حرة علنية، يلتحق بها من شاء، ويدرس ما شاء من مختلف العلوم والفنون، ولكن هذا المظهر العلمى لم يكن فى الواقع إلا ستارًا للغاية الأصلية التى أنشئت

دار الحكمة لتحقيقها، وهى بث الدعوة الفاطمية السرية بطريقة علمية منظمة تمتزج فيها النظريات والآراء النفسية بالأصول والمبادئ المذهبية، وتكون أبعد أثرا فى غزو الأذهان والعقائد من مجالس القصر، وبذا تجتمع جهود الدعاة فى مركز رئيس، يحتشد فيه «المؤمنون» من كل صوب، ليقوموا فيما بعد بقسطهم فى حمل الدعوة وبثها فى سائر المجتمعات والأنحاء. أما الأزهر فقد كان الهدف من إنشائه واضحًا، وهو أن يكون مسجدًا رسميًا للدولة الفاطمية، فى عاصمتها الجديدة، ورمزًا لسيادتها الروحية، ومنبرًا لدعوتها الدينية، دون تورط فى فرض المذهب الشيعى الإسماعيلى على الشعب المصرى. كان الأزهر موئلًا للدراسات اللغوية والأدبية والعلوم الدينية والمبادئ العامة للفقه الشيعى.

على أية حال لقد كان الجامع الأزهر المركز الرئيسى للمناسبات الاجتماعية والدينية. ولأن «نظرية الإمامة» تتبوأ ركنا بالغ الخطورة فى الفكر الشيعى، كان المعز لدين الله الفاطمى أشد حرصًا على أن يؤم المصلين عند إقامة صلاة الجمعة، وفى صلاة العيدين: الفطر والأضحى، كما كان يلقى خطب الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان بالجامع الأزهر. كذلك كان الجامع الأزهر مركز الاحتفال بالمولد النبوى الشريف: ففى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول يركب قاضى القضاة ومعه الشهود بعد العصر إلى الجامع الأزهر فى موكب رسمى حافل ومعه الموظفون المكلفون بتوزيع صوانى الحلوى على فئات من الموظفين وغيرهم مثل قاضى القضاة وداعى الدعاة والمحتسب وقراء الحضرة، والخطباء والشعراء ومن إليهم.

كما كانت ليالى الوقود، وهى ليلة أول رجب، وليلة منتصفه، وليلة مفتتح شعبان وليلة النصف منه، من المناسبات المشهودة بالأزهر، فتقيم الدولة به

الاحتفالات الرائعة. فكان الأزهر يضاء بالأنوار الساطعة. ويبدأ الاحتفال بموكب رسمى يتحرك بعد الغروب من دار قاضى القضاة الذى يتقدم الركب ممتطيًا جواده، ويحيط به ثلاثة من ممثلى الخليفة وعشرة من الحجاب والقراء يمتطون الجياد، ويرفعون الشموع المضاءة. وكان هناك الاحتفال فى الجامع الأزهر بمأتم عاشوراء، كما كان يسميه الفاطميون. ومنذ الصباح الباكر من اليوم العاشر من المحرم كان الحزن يجلل القاهرة، فتغلق الأسواق، ويحتجب الخليفة وفى الضحى تنظم الدولة موكبًا رسميًا يتقدمه قاضى القضاة والشهود، وقد اتشحوا جميعًا بملابس الحداد، ميممين وجوههم شطر الجامع الأزهر، حيث يعقد فى مقصورته مجلس يضم الأمراء والعلماء والقراء والأعيان. ثم يأتى الوزير، ويجلس إلى جانبه قاضى القضاة وداعى الدعاة، ويشرع القراء فى تلاوة آى الذكر الحكيم، ثم ينشد الشعراء فى رثاء الحسن والحسين وآل البيت. ثم يمد من بعد ذلك سماط الحزن، ليس فيه سوى العدس والألبان والأجبان وعسل النحل والملوحات والمخللات والخبز الأسود، ويحضره الخليفة ملثمًا، وفى ثياب قاتمة، ويحضره الأمراء وكبار رجال الدولة حفاة ملثمين.

كذلك كان الجامع الأزهر محل قاضى القضاة والمحتسب. ومنصب المحتسب كان ثالث المناصب، بعد منصبى قاضى القضاة وداعى الدعاة، وكانت وظيفته مزيجًا من الجوانب الدينية والاقتصادية والقانونية، فكان له الإشراف على الأسواق وكل ما يتصل بها، والتفتيش على السجلات الخاصة بأهل الذمة، واستيفاء الديون، والمحافظة على الآداب العامة ونظافة المساجد، ومراقبة معلمى الصبية، وتأديب المخالفين.

وكانت الدولة الفاطمية تتولى الإنفاق على الأزهر فهو مسجدها الرسمى الذى أنشأته. فلما تولى العزيز بالله أخذ باقتراح ابن كلس وأنشأ حلقة دراسية

بالجامع الأزهر، وقرر فتح اعتمادات مالية للإنفاق على الدارسين وإسكانهم، وتقديم الجراية والملابس إليهم، وتخصيص البغال لركوبهم، وما إلى ذلك من خدمات، كما أفرد لهم ابن كلس من ماله الخاص. فلما أن تولى الحاكم بأمر الله رأى أن يدبر موردًا ماليًا ثابتا للجامع الأزهر لا يكون متعلقا بشخص خليفة أو وزير، فوقف عليه بعضًا من الأموال الثابتة بعضها من ماله وبعضها من مال الدولة، شملت الأراضى الزراعية، والعقارات المبنية، والمخازن، والأسواق، وما إليها، يطلق عليها جميعًا بالمصطلح الفقهى «الأعيان»، فينفق على الجامع الأزهر ما تغله كل عين من الأعيان.

كما كان هناك كذلك «مال النجوى» و«النجوى» هى إتاوة أو رسم يؤديه طواعية الذين يحضرون مجالس الحكمة التى كانت تعقد فى الجامع الأزهر أو فى قصر الخليفة كل اثنين وخميس، ويرأسها داعى الدعاة، ويطلق عليهم: «المؤمنون» وكان فى مقدمة الحاضرين كبار علماء الفقه الشيعى.

وإلى كل هذا كانت هناك الأعطيات الخاصة، وكان فيها الأموال السائلة مثل التى جاء بها ابن كلس من حر ماله لطلاب الأزهر، وكان فيها أعطيات نوعية تشمل لحوم الأضاحى والأطعمة والحلوى يقدمها كبار رجال الدولة والموسرون لطلاب الأزهر فى المناسبات الدينية والمذهبية والموالد الرسمية الستة: المولد النبوى الشريف، ومولد على بن أبى طالب، ومولد السيدة فاطمة الزهراء، ومولد الحسن، ومولد الحسين، ومولد الخليفة الفاطمى القائم بالحكم.

***